أثر القرآن في تعلّم قواعد الخطّ العربيّ

د. صالح تقابجي
جامعة علي لونيسي- البليدة 2

تاريخ الاستلام: 2019 /05/08 تاريخ القبول:2019/09/23

الملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثيّة أنّ نجد حلولا لإشكاليّة الكتابة بين الرّسم العثمانيّ والرّسم الإملائيّ، إذ يمثّل القرآن الكريم واقعا لغويّا فريدا من نوعه، فقد توافرت له من وسائل التّوثيق وطرقها ما لم يتوافر لأيّ نصّ آخر دينيّ أو غيره، ذلك لأنّ الرّسالة المحمّديّة شاملة، فقد كانت معجزة سيّدنا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) لغويّة باقية الأثر، ومتجدّدة بتعاقب اللّيل والنّهار..؛ وكما هو معلوم فجانب اللّغة يجمع بين الشّكل والمضمون، ولغة القرآن الكريم معجزة في شكلها وفي مضمونها، بالإضافة إلى إعجاز آخر يتمثل في ملاءمته بينهما. فمن إعجاز القرآن الكريم صون ألفاظه عن التّبديل، والحفاظ عليه في صورته الّتي أنزل بها على الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) إلى ما شاء الله تعالى، أمّا عن بداية تدوين القرآن الكريم فقد كانت في عهد الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، ثمّ جمع ذلك في كتاب واحد في عهد سيّدنا عثمان (ﷺ)، وهو المصحف الشّريف وفق الرّسم العثمانيّ الّذي اعتمد كتابا للأمّة الإسلاميّة بإجماع الصّحابة (رضوان الله عليهم).

The influence of the Koran in learning the rules of calligraphy

The Quran is a unique linguistic reality. It has the means and methods of documentation unless there is any other religious or other text. This is because the Muhammadic message is comprehensive. The miracle of our master Muhammad (peace and blessings of Allaah be upon him) was a lingua franca, And the day .. As is known, the

language side combines form and content, and the language of the Holy Quran miracle in form and content, in addition to another miracle is the suitability between them. It is the miracle of the Holy Quran to preserve its words about the switch, and keep it in its form, which was revealed to the Prophet (peace be upon him) to what God Almighty, as for the beginning of codification of the Koran was in the era of the Prophet (peace be upon him), and then collect In the same book in the era of our master Osman (may Allah be pleased with him), which is the Koran according to the Ottoman drawing, which adopted a book of the Islamic nation by the consensus of the Companions (Radwan Allah them).

الكلمات المفتاحيّة:

اللّغة القرآنيّة - خصائص الرّسم العثمانيّ – الفرق بين الرّسم العثمانيّ والرّسم الإملائيّ الحديث

key words:

Quranic language - characteristics of Ottoman painting - the difference between Ottoman painting and modern spelling

تقديم:

لقد توالت الجهود في تتبّع الظّواهر اللّغويّة في القرآن الكريم للكشف عن أسرار هذا الكتاب المعجز في نظمه ولفظه وأصواته ومعانيه..؛ لأنّ كلام الله فوق كلّ كلام، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما من أحد يخطّ مؤلفا إلاّ ويبدأ بالاعتذار عن أيّ خطأ محتمل، إلاّ الله-عزّ وجلّ- ، فالقرآن الكريم حياة أمّة الإسلام، والنّور الّذي تهتدي به في الظّلام، فما ابتعدت عنه لحظة إلاّ زاغت عمّا أوصى به خير الأنام، عليه أزكى صلاة وأطيب

سلام، وإنّ حياة لغتنا مرتبطة بأفضل الكلام، منزّل من لدن حكيم خبير للغيب علاّم، الّذي وعد رسوله بحفظ كتابه؛ فحفظ بذلك لغة قرآنه.

فنشأة الدّراسات اللّغويّة وتواصل البحث في أغوار اللّغة العربيّة قديما وحديثا كان من أجل الكشف عن أسرارها، والإحاطة بعلومها، والغوص في يمّها للظّفر بالدّرر الكامنة في أعماقها، الّتي تعينها على مسايرة تيّار الحضارة؛ لأنّ اللّغة جزء من كيان الأمّة، فهي تمثّل أهمّ خصائص الهوّيّة الذّاتيّة، والانتماء الحضاريّ وقد ظلّت الألفاظ العربيّة عرضة للتّطوّر بسبب التّحوّلات التّاريخيّة، وتغيّر النّظم الاجتماعيّة، علاوة على العوامل الإنسانيّة والنّفسيّة واللّغويّة والحضاريّة. بيد أنّ ظاهرة التّطوّر اللّغويّ شائعة في كلّ اللّغات، وهي ظاهرة إيجابيّة إذ تجعل اللّغة قادرة على مسايرة الزّمن، وتستجيب للتّطوّر الحضاريّ، وإنّ لتطوّر معاني الألفاظ وتغيّرها أسبابا متعدّدة، فإمّا أن تكون دينيّة أو لغويّة أو اجتماعيّة أو تاريخيّة، أو بسبب الاقتراض اللّغويّ والاصطلاح العلميّ؛ ولعلّ ما يميّز اللّغة العربيّة عن غيرها من اللّغات أنّها تمتلك بعض الخصائص وهي ذاتها عوامل نموّها وتطوّرها، ومنها:

- السّماع الّذي يتعلق بمحاكاة العرب في كلامهم.

- القياس على سمت العرب وسنن كلامهم الّذي ارتبط بالقرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشّريف، والشّعر الجاهليّ.

- العوامل الدّاخلية للّغة من اشتقاق ونحت ونحو وبلاغة وغيرها.

1)- اللّغة القرآنيّة:

يعدّ القرآن الكريم واقعا لغويّا فريدا من نوعه، فقد يسّر الله تعالى حفظه في الصّدور، وجمعه في السّطور، ولم يسبق لأيّ نصّ دينيّ أو غيره أن عرف هذه العناية الإلهية، ومن جهة أخرى اجتمعت فيه كلّ أشكال البديع وسحر البيان، واشتمل على أروع أنماط التّعبير، وأساليب التّأثير؛ لذلك يتحدّى الله تعالى خلقه بأن يأتوا بمثل هذا القرآن

أو بعضه، نظرا لعلو فصاحته، ورفعة بيانه، وجمال نظمه، وإعجاز أسلوبه، فمن كان على دراية بالعربيّة وفنونها، يدرك حين سماعه القرآن أنّه معجز، والإتيان بمثله أمر مستحيل.

أمّا عن الإعجاز والمعجزة، فقد تناول علماء اللّغة ذلك بالدّراسة، فورد في القاموس المحيط "أعجزه الشّيء فاته، وفلانا وجده عاجزا، وصيّره عاجزا..، والتّعجيز التّثبيط، ومعجزة النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) ما أعجز به الخصم.."[1]، وقال الزّمخشري: " أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه"[2]، ومن كلام الأشعري: " المعجزة فعل خارق للعادة، مقترن بالتّحدّي، سليم عن المعارضة، وينزل منزلة التّصديق بالقول من حيث القرينة"[3]، وجاء في مقدّمة ابن خلدون: "إعجاز القرآن إنّما هو في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها وتركيبها"[4].

فإعجاز القرآن " ليس في العجب أبدع منه...، فهو يدفع عن هذه اللّغة العربيّة النّسيان الّذي لا يدفع عن شيء، فتذكر به اللّغة ولا يذكر بها، وبذلك يحفظها، إذ يكون في إعجازه مشغلة العقل البيانيّ العربيّ في كلّ الأزمنة...، كما أنّه مشغلة الفكر الإنسانيّ؛ إذا أريد درس أسمى نظام للإنسانيّة في حرامها وحلالها، ممّا تحلّه مصلحة الاجتماع أو تحرّمه"[5]، وقد تعرّض الباقلاني لقضية الإعجاز في غير القرآن من الكتب السّماويّة، حيث قال:" إنّما لم يكن شيء منها معجزا، لأنّ الله تعالى لم يصفها بما وصف القرآن، ولأنّنا قد علمنا أنّه لم يقع التّحدّي بها، كما وقع التّحدّي بالقرآن"[6]. فكلامنا عن القرآن الكريم ليس له حدود، ولا يمكن لأيّ مخلوق بحال من الأحوال أن يحيط به، ويدرك سرّ إعجازه، فهو يتجاوز كلّ طاقات النّفس البشريّة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وسيبقى- بتوالي الأجيال وعلى مرّ العصور- زادا حلوا لا ينفذ، وماء عذبا لا ينضب، ومائدة من السّماء عامرة كلّما طلبنا منها الخير زادتنا.

فقد كان العربيّ في عصر الجاهليّة وصدر الإسلام يعيش في بيئة نقيّة، فينشأ الطّفل فصيح اللّسان وينطق على السّجيّة منذ نعومة أظافره، وكانت العربيّة الفصحى هي

السّائدة في المجتمع، فقد اشتهر العرب بالخطب البليغة، والأشعار المؤثّرة في النّفوس، حيث كانت تعلّق على أستار الكعبة بعد أن تتمّ المفاضلة بين الشّعراء حسب إجادتهم للبيان في قصائدهم، وتخيّرهم للذّوق السّليم بقدرة تمييز فطريّة، فلم تكن لديهم خصوصّية منهجيّة في النّقد إلاّ أنّهم تركوا بعض الآليات اللّغويّة؛ ومنها قولهم: أشعر النّاس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنّابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب"[7].

وأمّا في صدر الإسلام، فقد أثّر القرآن بنظمه العجيب في ترشيد الذّوق البلاغيّ لدى العرب، إذ تحدّاهم الله (عز وجلّ)- وهم أهل فصاحة وبلاغة- بقوله:{ **وإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } البقرة: ٢٣، وفي آيات أخرى مماثلة لها؛ فاللّفظ في القرآن عربيّ ولكن وضع وفق أساليب لم يألفوها، ولن يستطيعوا مجاراتها رغم ما أوتوا من صفوة القول، وحسن الكلام، لذلك تنبّه العلماء إلى موضوع الإعجاز القرآنيّ، وبدأ الاهتمام بصناعة الكلام، فكان التّركيز على صحّة مخارج الحروف وائتلافها، وسلامة اللّغة، وعلاقة الألفاظ ببعضها، والعلاقة بين اللّفظ والمعنى وغيرها..، ولمّا اتّسعت رقعة الإسلام، واختلط العجم بالعرب، أخذ الذّوق العربيّ ينحرف وفشا اللّحن، وقلّت الفصاحة والبلاغة في الكلام، فنشأت على إثر ذلك الدّراسات اللّغويّة، وكانت الشّواهد من القرآن الكريم، والحديث الشّريف، ومأثور العرب في زمن الفصاحة من شعر ونثر، حيث انصبّت معظم الدّراسات في بدايتها على تفسير النّظم القرآنيّ باعتباره معجزا لما يحمله من أنماط لغويّة تفوق خيال العرب، ومحاسن كلامهم.

2)- نشأة الدّراسات اللّغويّة:

لم ينل كتاب في الدّنيا حظّه من الدّراسات والبحوث مثلما ناله القرآن الكريم، ورغم هذا الاهتمام العجيب يبقى مجال البحث مفتوحا في رحاب آفاقه الممتدّة إلى حدود لا يعلمها إلّا الله، واختار الله لوحيه أسماء لم تكن مألوفة لدى العرب، واشتهر منها اسمان[8]:

أ- تسميّته بالكتاب إشارة إلى جمعه في السّطور، لأنّ الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ.

ب- تسميّته بالقرآن إيماء إلى حفظه في الصّدور، لأنّ القرآن مصدر القراءة، وفي القراءة استذكار.

فسمّي قرآنا لكونه متلّوا، وكتابا لكونه مدوّنا؛ وغلب في الاستعمال من بين التّسميّتين لفظ القرآن؛ لأنّ لفظ الكتاب لا يتعيّن أنّ المراد منه القرآن الكريم إلاّ إذا أضيف إلى لفظ الجلالة (الله)، وقد سال حبر كثير في هذا الباب؛ فالإمام الشّافعيّ (رحمه الله) لم ير داعيا للبحث في أصل التّسميّة، " فإنّ الله سمّاه القرآن كما سمّى المنزّل على موسى بالتّوراة، وسمّى المنزّل على عيسى بالإنجيل، فهو علم أو اسم، والأسماء لا تعلّل."[9] أمّا الإمام الغزالي (رحمه الله) فقد عرّف الكتاب بأنّه " ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السّبع المشهورة نقلا متواترا...، ونعني بالكتاب القرآن، وقيّدناه بالمصحف؛ لأنّ الصّحابة بالغوا في الاحتياط في نقله حتّى كرهوا التّعاشير والنّقط، وأروا بالتّجريد كيلا يختلط بالقرآن غيره، ونقل إلينا متواترا، فنعلم أنّ المكتوب في المصحف الشّريف المتّفق عليه هو القرآن ..."[10]؛ وأمّا إيضاح دلالات ألفاظ آخر الكتب – وهو الميزان الّذي يعرف به صحيحها ممّا حرّف منها- قد أجهد المفسّرين والباحثين في مجال الدّراسات القرآنيّة، الّذين عنوا به، فألّفوا هذا الكمّ الهائل من الأسفار الّتي تملأ مكتباتنا، علاوة على تبيينهم الصّلة الوطيدة بين القرآن الكريم وعلوم العربيّة؛ فما نشأة الدّراسات اللّغويّة إلاّ مطيّة لفهم كتاب الله، وحسن تأويله، وكشف أسراره، ومواطن إعجازه، وتوضيح معانيه، وهو ما زاد اللّغة العربيّة رفعة وشأنا بين اللّغات، فإنّ سعي العلماء من أجل فهم القرآن الكريم وتفسيره، كان باعثا وراء تطوّر علوم العربيّة.

فقد عنى اللّغويّون العرب منذ أواخر القرن الأوّل الهجريّ بدراسة اللّغة العربيّة الفصحى، الّتي سجّل بها الشّعراء خواطرهم، ومظاهر الحياة من حولهم، كما استخدمها الخطباء في محافلهم الأدبيّة، ثمّ توّجها القرآن الكريم، فأنزله الله تعالى بأعلى ما تصبوا إليه

هذه اللّغة من مستوى، ومنذ ذلك الحين ارتبطت اللّغة العربيّة بالقرآن، فاجتهد العلماء القدماء في دراستها، وتحديد معالمها من نواحي الأصوات والصّيغ والدّلالة وتركيب الجمل ووظيفة الكلمة داخل الجملة...، ورأوا أنّ الدّرس اللّغويّ مرتبط بقدسيّة العربيّة، وارتفاع شأنها على ما عداها من اللّغات؛ ولذا برعوا في تسجيل الظّواهر اللّغويّة، والبحث في أسرارها وتعليلها، وبلغت هذه الدّراسات ذروتها في القرن الخامس الهجريّ، وما تلا ذلك العصر لم يكن إلّا ترديدا أو شرحا أو تلخيصا لأعمال سابقة. وقد اعتمد اللّغويّون على مصادر معيّنة لجمع المادّة اللّغويّة (متن اللّغة)؛ وهي: القرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشّريف، والشّعر العربيّ، والشّواهد النثريّة، ووضعوا شروطا تشمل الزّمان والمكان بخصوص القبائل العربيّة المعنية، فحدّدوا القرن الثّاني الهجريّ لعرب الأمصار، والرّابع الهجريّ لعرب البادية، وعدّوا البداوة أفصح من المناطق الّتي احتكّت بالحضارة، وقد تمّت هذه العملية أوّلا بطريقة المشافهة والحفظ دون منهج معيّن أو ترتيب للمادّة أو تبويبها، وبعدها اتّجه أهل اللّغة إلى تّصنيف متون اللّغة المجموعة في شكل رسائل منفصلة؛ كما فعل الأصمعي الّذي كتب موضوعات عن الخيل والنبات وغيرها...، وتوّجت هذه الجهود بظهور المعاجم اللّغوية المنظّمة الّتي كان رائدها الخليل بن أحمد (175ه) بكتابه "العين".

وتعدّ اللّغة العربيّة من أهمّ اللّغات السّاميّة، وأوسعها على الإطلاق؛ كما أورد الشّافعيّ (ت204ه) في أوائل مؤلفه-الرّسالة- " لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا، ولا نعلم أن يحيط بجميع علمه غير نبيّ، وعلم أكثر اللّسان في أكثر العرب أعمّ من علم أكثر السّنن في العلماء"[11]، ورغم الجهود المبذولة في جمع لغة العرب وتأصيلها، إلّا أنّه قد ضاع الكثير ممّا كان على حدّ قول ابن فارس (ت395ه): " إنّ لغة العرب لم تنته إلينا بكلّيتها، وإنّ الّذي جاءنا من العرب قليل من كثير، وإنّ كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله"[12]؛ غير أنّه لم يؤثر عن العرب أيّ نوع من الدّراسات اللّغويّة قبل الإسلام مقارنة بم ظهر من دراسات عند الأمم الأخرى، والّتي كانت مرتبطة هي الأخرى بالعقيدة والدّين، فقد اهتمّ العرب بالعلوم الشّرعيّة في بداية الأمر، ثمّ اتّجهوا إلى العلوم الأخرى، وحتّى ما وجد في القرن الأوّل من تأملات نحويّة كان بدافع إسلاميّ، باعتباره خادما للنّصّ القرآنيّ، ومن ذلك

محاولة ابن عباس (ﷺ) جمع الكلمات الغريبة في القرآن وشرحها؛ إن صحّت نسبة "غريب القرآن" إليه، وكذلك محاولة أبي الأسود الدّؤلي ضبط المصحف بالشّكل..

أمّا الدّراسات النّحويّة فقد تأخرت عن مرحلة جمع اللّغة، لأنّ تقعيد القواعد ما هو إلاّ فحص لمادّة لغويّة تمّ جمعها، واستنباط الأسس الّتي تحكمها، فقد نقل السّيوطي قولا عن البغدادي:" اعلم أنّ اللّغويّ شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، أمّا النّحويّ فشأنه أن يتصرّف فيما ينقله اللّغويّ ويقيس عليه، ومثالها المحدّث والفقيه..."[13]؛ فإنّ سبب وضع النّحو العربيّ – مهما كان واضعه باختلاف الرّوايات – ما فشا من لحن عقب الفتوحات الإسلاميّة، وامتداد آفاق اللّغة العربيّة، وفساد الألسنة حتّى بالنّسبة للعرب أنفسهم نتيجة اختلاطهم بالأعاجم، فقد تمّت أوليات الدّراسة النّحويّة في البصرة، ثمّ الكوفة، أمّا أوّل عمل نحويّ بلغ مرحلة النّضج "الكتاب" لسيبويه.

3)- مراحل تدوين القرآن الكريم:

أ- تدوين القرآن الكريم في عهد الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم):

كانت تكتب آيات القرآن في عهد الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) خالية من النّقط، سواء نقط إعجام أو نقط شكل، وهي الطّريقة الّتي أقرّها الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) لكتابة القرآن، كما يقول القلقشندي: "إنّ الحروف مع تشابه صوّرها كانت عريّة عن النّقط إلى حين نقط المصحف"[14]. وفي بعض المراجع إشارات إلى الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) كان يرشد بنفسه كتبة الوحي إلى رسم حروف القرآن وكلماته، كقوله (صلّى الله عليه وسلّم) لمعاوية: "ألق الدّواة وحرف القلم، وانصب الباء، وفرّق السّين، ولا تعور الميم، وحسّن الله، ومدّ الرّحمن، وجوّد الرّحيم..."[15] ؛ فقد تناول الباقلاّني القرآن بالدّراسة من حيث إعجازه فعرّفه بأنّه: "هو ذلك المتلو، المحفوظ، المرسوم في المصاحف، وهو الّذي جاء به النّبي محمد (صلّى الله عليه وسلّم)، وأنّه هو الّذي تلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة"[16]، كما قام بتوثيق القرآن نسبة إلى النّقل المتواتر الّذي يقع عنده العلم الضّروريّ، وذلك أنّ الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) كان يتلوه على من تابعه وأورد إلى غيره ممّن لم

يتابعه، حتّى انتشر في أرض العرب كلّها، وبعدّه إلى الملوك المتاخمة لهم، كملك الرّوم، والفرس، والقبط، والحبش، وغيرهم...؛ ولكن لا يمكن أن نعرف الصورة الّتي دوّن بها القرآن الكريم في عهد النّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، ذلك لأنّ سيّدنا عثمان بن عفان (ﷺ) بعد أن أمر بنسخ المصاحف أرسل إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق[17]، وبالنّسبة للصّحف الّتي كانت عند أمّنا حفصة (ﷺ)، فقد أحرقها مروان بن الحكم بعد وفاتها[18]، والرّاجح أنّ الصّورة الّتي كتبت بها آيات القرآن الكريم أثناء نزول الوحي كانت خالية من أيّ نقط (سواء كانت نقط إعجام أو نقط شكل)[19].

فقد نزّل الله تعالى الكتاب على عبده محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) إمام المرسلين منجّما في بضع وعشرين سنّة، وذلك بحسب الحاجة الّتي تكون سببا للنّزول، وليثبّت به فؤاد النّبي (صلّى الله عليه وسلمّ)، كما أنّه بنزوله متفرّقا كان أظهر لوجه إعجازه، وتحدّ به العرب بأن يأتوا بمثله، وكان ابتداء نزول الوحي في عام 611م بمكّة المكرّمة في غار حراء، ثمّ هاجر الرّسول(صلّى الله عليه وسلّم) عام 622م إلى المدينة المنوّرة؛ فنزل القرآن مكياّ ومدنياّ، ومن حكمة الله تعالى في ذلك، استدراج المسلمين وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النّوازل والحوادث، ليكون تحوّلهم أشبه بالسّنّة الطّبيعيّة؛ فدلّت الآيات المكّيّة على أمور عقيدة التّوحيد لأنّ المسلمين كانوا حديثي عهد بالإسلام، كما دلّت الآيات المدنيّة على أمور تشريعيّة لينتظم المسلمون في بناء دولتهم الجديدة وفق ما أحلّ الله وما حرّمه، فهو أعلم بما يخدم مصالحهم وبقدراتهم فشرّع لهم منهجا يقتدوا به في حياتهم، وأسوتهم في ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم).

ب- تدوين القرآن الكريم في عهد الصّحابة (رضوان الله عليهم):

كان بعض الصّحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم أو بأمر من رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، " فيخطّونه على ما اتّفق لهم يومئذ من العسب والكرانيف واللّحاف والرّقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع من الشّاة والإبل"[20]،

وكلّ ما أصابوا من مثلها ممّا يصلح لغرضهم، ولكن لا ريب أنّ نفرا من الصّحابة تأتّى لهم جمع القرآن كلّه في ذلك العهد، حيث عدّت مصاحف ابن مسعود وأبيّ وزيد ثقة، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، فهؤلاء كانوا المادّة المعتمدة في نسخ المصحف العثمانيّ. وبعد وفاة الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، أوكلت خلافة المسلمين لسيّدنا أبي بكر الصّديق (ﷺ)، فانشغل كما هو معلوم في تاريخ الإسلام بحروب الرّدّة، وعلى إثر ذلك استشهد صحابة كثر، وجلّهم من حفظة القرآن والقرّاء؛ فأمر سيّدنا أبو بكر زيد بن ثابت(ﷺ) بأن يكتب القرآن ففعل ذلك على قطع الأديم وكسر الأكتاف والعسب، واحتفظ بتلك النّسخة، وإنّما ائتمنه أبو بكر لأنّه من كتبة الوحي، وهو صاحب العرضة الأخيرة، واحتفظ أبو بكر بتلك الصّحف إلى أن توفي سنة 13هـ، فخلفه سيّدنا عمر(ﷺ) فكانت عنده حتّى مات، ثمّ انتقلت إلى أمّنا حفصة (ﷺ)، وأصبح سيّدنا عثمان(ﷺ) خليفة للمسلمين، وفي عهده اتّسعت الفتوحات وتفرّق المسلمون في الأمصار، فأخذ أهل كلّ مصر عن قارئ دون الآخرين، حيث أخذ أهل الكوفة عن ابن مسعود، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعريّ، وقرأ كثير من أهل الشّام بقراءة أبي بن كعب ...؛ وكانت وجوه القراءة الّتي يؤدى بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف الّتي نزل بها، فكان النّاس يتمارون في قراءة القرآن حتّى أنّ بعضهم يكفّر بعضا، فأعظم سيّدنا عثمان أمر هذه الفتنة، وأكبره الصّحابة، فأجمعوا أمرهم على أن ينسخوا مصحفا يجمعون عليه النّاس، فأرسل عثمان إلى حفصة، فبعثت إليه بتلك الصّحف، ثمّ أرسل إلى زيد بن ثابت وأمره أن يكتب له مصحفا، ثمّ أمره ومن كان معه من الحفظة بأن يكتبوا ما اختلفوا فيه بلسان قريش لأنّ القرآن نزل بلسانهم، ثمّ بعث في كلّ أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة؛ فأرسل منها إلى مكّة واليمن والبحرين والبصرة والكوفة، واحتفظ بواحد في المدينة وهو المصحف الإمام، ثمّ أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق، وكان ذلك سنة 25هـ.

4- خصائص الرّسم العثمانيّ:

الرّسم العثمانيّ هو الطّريقة الّتي كتبت بها الحروف الهجائيّة في المصحف العثمانيّ، ويشمل ذلك كيفيّة هجائه وتجريده من علامات الإعجام والشّكل، وقد قسّم القسطلاني طريقة هجاء المصحف إلى قسمين هما:

- قياسيّ: وهو ما وافق الخطّ فيه اللّفظ، وقد جاء عليه أكثر المصحف.

- اصطلاحيّ: وهو مخالفة الخطّ للّفظ، أو مخالفة الرّسم لقواعد الكتابة العربيّة، ويخضع هذا النّوع لقواعد معيّنة تشكّل أسس الرّسم العثمانيّ، وقد حصر القسطلاني هذه القواعد فيما يلي[21]:

أ)- الحذف والإثبات:

ومن أمثلة ذلك ألف (أولئك)، و(ذلك)، و(ها) التّنبيهيّة (هأنتم)، و(هؤلاء)، وألف (لكن) مخفّفة أو مشدّدة أينما وقعت، والألف النّدائيّة في مثل:(يربّ)، (ينوح)، (يسماء)، ومن أمثلة الحذف كذلك حذف الياء، وتختلف المصاحف في الحذف أو الإثبات، مثل الألفين في الجمع المؤنث (كالصّالحات)، و(الصّافات)، و(الصّائمات)، فأكثر المصاحف على حذف الألفين وأقلها على حذف الأولى وإثبات الثّانية"[22].

ب)- الزّيادة:

ومن أمثلة ذلك زيادة الألف في (شيء، وفي (مائة) و(مائتين)، وفي (الظّنونا) و(الرّسولا) و(السّبيلا)، وزيادة الياء في (ملأ)، وفي (أيد).

ج- البدل:

ومن أمثلته رسم الألف المتطرّفة ياء اتّفاقا في (الهدى)، و(أربكم)، ورسم الألف واوا في (الصّلوة) و(الزّكوة) و(الحّيوة) و(الرّبوا) غير مضافات.

د- الوصل والفصل:

ومن أمثلة ذلك كتابة (عما) و(فيما) متّصلتين، ونجد أنّ كتابة (ما لهذا) كانت بفصل اللاّم عن اسم الإشارة، كما كتبت (ما) مفصولة وموصولة.

هـ- الهمزة:

اتّفقت المصاحف على كتابة صورة الهمزة بالحرف الّذي تؤوّل إليه في التّخفيف أو تقرّب منه، وأهملوا المحذوفة فيه، ورسموا المبتدأ ألفا، فيما عدا بعض المواضع في الرّسم وقعت على غير القياس، نحو: (هؤلاء) كتبت واوا، و(لئلا) ياء، و(اشمأزّت) ألفا، (أولاء) ألفا كذلك.

و- وأمّا ما فيه قراءتان أو أكثر فهو نوعان:

- نوع يحتمله الرّسم العثمانيّ المجرّد من النّقط (الشّكل والإعجام)، مثل: (فتبينوا)، فقد قرىء: [فتبيّنوا]، وقرئ [فتثبّتوا] ، ومثلها [ننشزها] ، الّتي تحتمل (ننشزها) و(ننشرها)، وقد قرئ بهما[23]، فهذا النّوع لا مشكلة فيه.

- ونوع لا يحتمله الرّسم العثمانيّ، ويتعذّر رسمه - دون شكل ونقط- بصورة تحتمل جميع الوجوه، وقد قام كتّاب المصاحف العثمانيّة بتنويع الرّسم في النّسخ المتعدّدة، بحيث اقتصرت كلّ نسخة على وجه واحد من القراءات المتنوعة، وبهذا نتجت الفروق أو الاختلافات بين بعض المصاحف العثمانيّة.

5)- نقط المصحف العثمانيّ:

بقي المصحف العثمانيّ مجرّدا من نقط الإعجام والشّكل لفترة تجاوزت أربعين سنة، حيث قام أبو الأسود الدّؤلي بضبط المصحف العثماني بالشّكل عام (67هـ)[24]، وقد اجتهد في ابتكار هذه الطّريقة بعدما انتشر اللّحن، وضعفت السّليقة اللّغوية، ودخل الأعاجم في الإسلام، بالإضافة إلى رغبة المسلمين في تلقي القرآن مشافهة من العلماء أو

تلاوته في المصاحف، "وقد سجلت كتب التّصحيف نماذج كثيرة لأخطاء المسلمين في قراءة القرآن، لم تقتصر على عامّة النّاس فحسب، بل تعدّتهم إلى خاصتهم"[25].

وقد تمثلت مشكلات الرّسم العثمانيّ في جوانب ثلاثة، هي[26]:

- الرّسم بطريقة لا يتّفق فيها المكتوب مع المنطوق.

- التّجريد من نقط الإعجام الّذي يميّز بين الأحرف المتشابهة رسما، والمختلفة نطقا.

- التّجريد من الضّبط بالشّكل، (العلامات أو الحركات).

والرّواية المشهورة عن سبب تصدّي أبي الأسود الدّؤلي لضبط المصحف بالشّكل " أنّه سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: {أنّ الله برئ من المشركين ورسوله}[التوبة: ٣] يجرّ (رسول)، فاستعظم ذلك وقال: عزّ وجه الله، إنّ الله لا يبرأ من رسوله، ثمّ قام بنقط المصحف ضبطا للشّكل"[27]، واعتبر هذا العمل أوّل إصلاح في المصحف العثمانيّ. وتمثلت طريقة أبي الأسود الدّؤلي في ضبط المصحف " أن استحضر كاتبا وأمره بتناول المصحف، وأن يأخذ مدادا يخالف لون المداد الّذي كتب به المصحف؛ فيضع نقطة واحدة فوق الحرف إذا رآه قد فتح شفتيه، ونقطة واحدة تحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه، ونقطة واحدة بين يدي الحرف (أمامه) إذا رآه قد ضمّ شفتيه، أما إذا أتبع الحرف الأخير غنّة، فيضع نقطتين إحداهما فوق الأخرى، وأما الحرف السّاكن فقد أهمله، واعتبر عدم النّقط علامة له"[28].

وقد قصر بعض الكتّاب هذا الضّبط على أواخر الكلم، دلالة على الفتحة والكسرة والضّمة والتّنوين، كما أشار إليه أبو الأسود، "وهو موضع الإعراب؛ إذ فيه يقع الإشكال، ويدخل الالتباس"[29]. ولم يكن هذا النّقط (نقط الشّكل) كافيا، إذ بقي النّاس بحاجة إلى طريقة أوضح للتّمييز بين الحروف المتشابهة رسما والمختلفة نطقا، بواسطة النّقط (الإعجام)، وتيّسر هذا الأمر على يد " نصر بن عاصم (ت89ه)، ويحي بن يعمر(ت129ه) بتكلف من الحجّاج بن يوسف الثّقفي في زمن عبد الملك بن مروان"[30]؛ فقد نقطت الحروف بنفس مداد الكتابة، "وكان النّقط يكتب أحيانا مدورا، وأحيانا مربعا"[31].

وظلّ النّاس يميّزون بين نقط الشّكل ونقط الإعجام، بلون مخالف للأوّل ولون أسود للثّاني، ثمّ استخفّ النّاس بهذه الطّريقة؛ وبدأوا يشكّلون الحروف بلون مداد الكتابة نفسه، مما أدّى إلى اختلاط نقط الشّكل بنقط الإعجام، فوضع الخليل بن أحمد (ت175ه) طريقة جديدة في نقط المصحف تمثّلت في وضع علامات الشّكل الثّماني الّتي لازالت تستعمل لحدّ الآن؛ وهي[32]:

- الفتحة (جرّة علوية): وصفها بعضهم بألف مبطوحة فوق الحرف.

- الكسرة (جرّة سفلية): كانت في الأصل ياء ممتدّة تحت الحرف.

- الضّمة (رأس واو): وتصبح رمزا للتّنوين بتكرار العلامة.

- السّكون (رأس حاء): دائرة صغيرة.

- الشدّة (رأس شين).

- الهمزة (رأس عين).

- علامة الوصل (ص).

- علامة المدّ (~).

وقد أضاف العلماء بعض التّحسينات إلى المصحف العثمانيّ ابتغاء التّيسير على النّاس؛ ومنها:

- وضع علامة تدلّ على نهاية الآية، ولاسيما بعد أن انعقد الإجماع على أنّ ترتيب الآيات توقيفي[33].

- تقسيم القرآن إلى أجزاء، والأجزاء إلى أحزاب، والأحزاب إلى أرباع، والإشارة إلى ذلك برسوم خاصّة[34].

وقد أضيفت تحسينات أخرى في العصر الحديث، وبخاصة بعد انتشار الطّباعة؛ ومنها[35]:

- وضع ألف بقلم دقيق فوق الواو والياء؛ في مثل: (الصّلوة) و(التّورىة)، تنبيها إلى أنّ الألف هي المعوّل عليها في النّطق دون الواو والياء.

- وضع ياء إضافيّة؛ في مثل: كلمة (وليّ) للإشارة إلى أنّها تنطق بياءين لا ياء واحدة.

- وضع واو صغيرة بعد الواو؛ في مثل: (داوود).

- وضع صفر مستدير فوق حرف العلّة؛ في نحو: (قالواْ) للدّلالة على زيادة هذا الحرف، وعدم جواز النّطق به.

ورغم كلّ التّحسينات الّتي أضيفت إلى المصحف العثمانيّ، "ظلّ المسلمون متحرّجين من إدخال أيّ تعديل على طريقة الهجاءّ، واتّباع قواعد الإملاء الحديث في رسم المصحف"[36]، وأمّا الضّبط "فقد جرى عمل المسلمين على التّرخيص به دفعا للالتباس، ومنعا للتّحريف والخطأ"[37]، غير أنّ الجدل ظلّ قائما بين العلماء قديما - ولا يزال إلى الآن- بالنّسبة لهذه القضية، حيث قال الإمام مالك (رحمه الله) في هذا الشأن: " أمّا الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط، ولا يزاد في المصاحف ما لم يكن فيها، وأمّا المصاحف الصّغار الّتي يتعلّم فيها الصّبيان وألواحهم، فلا أرى بذلك بأسا"[38].

6- بين الرّسم العثمانيّ والرّسم الإملائيّ:

لقد حاول بعض العلماء أن يلتمسوا الحكمة من الاختلافات، أو الفروق الموجودة بين الرّسم العثمانيّ والرّسم الإملائيّ الحديث، وعدم الاطّراد في قواعد الهجاء في الرّسم العثمانيّ، ولكن بقيت حكمة ذلك عند الصّحابة الّذين نسخوا المصحف، فمنها ما علم ومنها ما لم يعلم، وممّا توصّل إليه علماؤنا نجد بعض التّحليلات أو التّعليلات المقبولة لبعض الأمثلة؛ ومنها:

- تعليل زيادة ألف(لشايء)، في مثل قوله تعالى: {ولا تقولنّ لشايء إنّي فاعل ذلك غدا} [الكهف: ٢٣]؛ بأنّ الفتحة كانت تكتب ألفا قبل استقرار قواعد الخطّ العربيّ[39].

- تعليل زيادة الألف في(مائة)؛ للتّفريق بينها وبين (منه) قبل ظهور نقط الإعجام[40].

- تعليل كتابة (لدى) تارة بالألف وتارة بالياء؛ بأنّ المرسوم بالألف على اللّفظ، وبالياء لانقلاب الألف ياء مع الإضافة إلى الضمير[41].

- تعليل كتابة ألف (الصلاة) و(الزّكاة) و(الحياة) واوا؛ بأنّه على اعتبار الأصل، أو على لغة أهل الحجاز الّذين يفرطون في تفخيم الألف وما قبلها في ذلك[42].

وهناك من العلماء من يلتمس الحكمة في عدم الالتزام بموافقة الهجاء للنّطق، وهي " حمل النّاس على أن يتلقّوا القرآن من صدور الثّقات، ولا يتكلّموا على هذا الرّسم العثمانيّ الّذي جاء غير مطابق للنّطق الصّحيح في الجملة"[43].

7)- الإملاء:

لقد كان العرب والهنود أدقّ من غيرهم على أساس "أنّ الهنود قد رتّبوا الأصوات ابتداء من أقصاها في الحلق إلى الشّفتين ثمّ يذكرون الأصوات الأنفية، وهو ما فعله الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه من بعده"[44]، فنجد في مقدّمات المعاجم العربيّة معلومات عن أصوات اللّغة العربيّة بتأثّر ممّا جاء به الخليل وسيبويه الّذي صنّف الأصوات العربيّة حسب المخارج، "كما أسهم علماء القراءات القرآنيّة في إضافة تفصيلات صوتيّة لما أثر عن الخليل وسيبويه، وسجّلوا خصائص صوتيّة تنفرد بها التّلاوة القرآنيّة، ووصفوا رموزا كتابيّة تمثل هذه الخصائص"[45].

أمّا ترتيب الأصوات أو الحروف، فقد جاء أبجديا كما وصفه الكنعانيون واحتوى على حروف: (أبجد، هوّز، حطي، كلمن)، غير أنّ اللّهجات الحجازيّة واليمنيّة زادت عليها ستّة حروف هي: (ثخذ، ضظغ)؛ "إذ يكون لأمّة من الحروف ما ليس لأمّة أخرى"[46]. وفي

العصر الأموي تغيّر ترتيب الحروف بوضع ما تشابه منها في الرّسم متجاورة؛ فجاء التّرتيب الألفبائي المعروف: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي.

8)- الخطّ:

هو تصوير اللّفظ بحروف هجائه الّتي ينطق بها، وذلك بأن يطابق المكتوب المنطوق به من الحروف "والأصل في كلّ كلمة أن تكتب بصورة لفظها، بتقدير الابتداء بها والوقف عليها، وهذا أصل معتبر بالكتابة"[47]، لذلك تكتب ألف (أنا) مع أنّها لا تلفظ في درج الكلام، "لأنّ الوقف عليها يكون بألف"[48]، كما تكتب تاء التّأنيث الّتي يوقف عليها بالهاء، هاء؛ كرحمه، وفاطمه، وتكتب الّتي يوقف عليها بالتّاء، تاء؛ كرحمت، وفاطمت، ويكتب المنوّن المنصوب بالألف، لأنّه يوقف عليها؛ كقولنا: كلّمت خالدا، ويكتب المنقوص الّذي حذفت ياؤه للتّنوين؛ كقاضي، وكلّ ما كتب كان باعتبار حال الوقف، كما يكتب ما لا يمكن الوقف عليه من الكلمات متصلا بما بعده، وما لا يمكن الابتداء به متصلا بما قبله، فالأوّل كحروف الجرّ الموضوعة على حرف واحد (برؤوسكم)، والثّاني كالضّمائر المتّصلة (منكم).

أمّا الحروف الّتي تقع في حشو الكلام، أي ما بين الابتداء والوقف، فترسم كما تلفظ من دون تغيير، إلاّ ما كان من أمر بعض الأحرف في بعض الكلمات المحصورة قد خالف رسمها لفظها، وذلك إمّا أن تكون بحذف حرف حقّه أن يكتب تبعا للفظه، وإمّا أن تكون بزيادة حرف يكتب ولا يلفظ، وكان من حقّه ألّا يكتب، وإمّا أن تكون برسم حرف يكتب على خلاف لفظه، وكان من حقّه أن يرسم على لفظه.

9)- أنواع الكتابات:

الخطّ على ثلاثة أنواع:

الأوّل- كتابة المصحف:

وهو رسم معيّن اختاره الصّحابة (رضي الله عنهم) لكتابة كلمات المصحف العثمانيّ، وهو سنّة متّبعة؛ كما قال ابن درستويه: " وجدنا كتاب الله - عزّ وجلّ - لا يقاس هجاؤه، ولا يخالف خطّه، ولكن يتلقّى بالقبول على ما أودع بالمصحف[49]، ويرى ابن فارس أنّ الخطّ الّذي كتب به المصحف العثمانيّ توقيف، حيث استشهد بعدّة آيات من القرآن الكريم.

الثّاني- كتابة العروض:

وتكون حسب الملفوظ به، فالتّنوين مثلا يكتب نونا (مستفعلن)؛ كما قال ابن درستويه: " ورأيت العروض إنّما هو إحصاء ما لفظ به من ساكن ومتحرك، وليس يلحقه غلط، ولا فيه اختلاف بين أحد "[50].

الثّالث- الكتابة الحديثة:

وهي الخطّ الّذي نكتب به لغتنا العربيّة، والمتمثّل في القواعد التّالية: الهمزة، الألف، الوصل والفصل، زيادة الحروف، الحذف، تاء التأنيث، والّتي نستعرضها في المباحث التّاليّة:

- ما يلفظ ولا يكتب:

- تكتب كلمة (الّذين) بلام واحدة، وتلفظ بلامين لأنّها مشدّدة.

- إذا اجتمعت ثلاث لامات في كلمة واحدة، نكتفي باثنين؛ كما في قولنا: "اللّذان أحسنا، واللّتان أحسنتا".

- تحذف الألف في كلمات اشتهرت في اللّغة العربيّة، ومنها:

*- كلمة (السموات)، وهناك من يكتبها في غير القرآن بالألف.

*- كلمة (الرّحمن) معرفا ب (ال)، " وقد قيّد بعضهم الحذف في حال العلميّة وأثبتها في غيرها، وقيّد بعضهم الحذف في البسملة وأثبتها فيما عداها"[51].

*- كلمة (إله) نكرة ومعرفة.

*- كلمة (لكن) و(لكنّ).

*- حرف النّداء (يا)، قبل (أيّها)، " وقبل (أهل)، وقبل كلّ علم مبدوء بهمزة، ويجوز في غير القرآن الكريم إثبات ألف(يا)، وهو المشهور بين الكتّاب (يا أيّها، يا أهل، يا إبراهيم)"[52].

*- هناك من يحذف الألف من كلّ علم مشهور، (كإسحق)، و(إسمعيل)، و(هرون)، و(سليمن)...، وهناك من يحذف الألف في الجمع السالم مذكرا ومؤنثا، (كالصلحين)، و(القنتين)،... و(الصلحت)، و(القنتت)؛ كما وردت في القرآن الكريم، " والأفضل إثباتها في غير القرآن"[53].

*- تحذف ألف (ها) التّنبيهيّة إذا دخلت على اسم إشارة (هذا، هؤلاء، هأنذا، هأنتم، هكذا ...)، وتحذف ألف (ذا) الإشاريّة إذا لحقتها اللاّم، ومن (تا) الإشاريّة كذلك إذا دخلت عليها لام البعد، وكاف الخطاب.

*- تحذف الألف من (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها أحد حروف الجرّ أو إذا أضيفت، نحو: (- إلام؟ - فيم؟) في الاستفهام، والإضافة والجرّ، نحو: (حتام، بمقتضام).

*- تحذف ألف التّنوين وجوبا من الاسم المنتهي بتاء مربوطة، ككلمة (معيشة)، والاسم المنتهي بألف، مثل: (اشترى العجوز عصا خشبيّة.)، والاسم المنتهي بهمزة قبلها ألف، مثل كلمة (بناء، وماء)، والاسم المنتهي بهمزة مرسومة على ألف، نحو قولنا: (أنبأته نبأ سارا).

- ما يكتب ولا يلفظ:

*- زيادة الألف في (مائة) غير ملفوظة مفردة ومثناة ومركبة، " ووجه القياس أنّ تكتب بياء بلا ألف، وإنّما كانوا يكتبونها بزيادة الألف، يوم لم تكن الحروف تنقط، كيلا تشتبه بكلمة (منه) المركبة من (من) الجّارة، وهاء الضّمير"[54].

*- زيادة ألف بعد واو الضّمير للتّفريق بين الأفعال والأسماء، فتوضع الألف الفارقة بعد واو الجماعة في الأفعال للتّفريق بينها وبين الاسم (جمع المذكر السالم) ، كما في قولنا: (معلمو المدرسة علّموا الطّلاب)، وعن واو الأسماء السّتة المرفوعة، نحو: (أبو طالب)، و(واو) حرف العلّة في المضارع المرفوع، نحو:(الحقّ يعلو)، و (واو) أولو المضافة، نحو: (أولو العزم من الرّسل خمسة).

*- زيادة (الواو) في (أولو)، و(أولي)، بمعنى:(أصحاب)، وفي (أولات)، بمعنى: (صاحبات)، وفي (أولاء)، و(أولي) الإشارتين، وأمّا (الألى) الموصوليّة، بمعنى: (الّذين) فلم يزيدوا فيها الواو. كما تزاد الواو في كلمة (عمرو) " في حالتي الرّفع والجرّ، نحو: جاء عمرو، ومررت بعمرو، وتحذف في حالة النّصب، رأيت عمرا، وذلك للتّعريف بينه وبين عمر"[55].

10- كتابة الهمزة:

الهمزة (ء) على شكل رأس عين محورة، كما رسمها الخليل، وهي الّتي تقبل الحركات، فإن رسمت على ألف تسمى همزة قطع (الألف اليابسة)، كأعطى، وسأل، وملأ، وتقابلها همزة الوصل (الألف اللّينة)، وهي الّتي لا تقبل الحركات، كألف (ا) (قال، دعا، ورمى)؛ ولا تقع في أوّل الكلمة لأنّها لا تكون إلاّ ساكنة، والعرب لا تبدأ كلامها بساكن، وفي هذا يقول إميل يعقوب: " أغلب الظن أنّ الألف كانت تطلق في الأصل على ما يسمى اليوم همزة، لا على ما ندعوه اليوم الفتحة الطّويلة أو المشبّعة، كما في نحو: (قال)، وأنّ الفتحة الطويلة أو ألف المدّ لم يكن لها كبقية الحركات القصيرة والطّويلة علامة كتابية"[56] ؛ وقد دعّم ظنّه بهذين التّفسيرين:

*- إنّ قيّم الأصوات العربيّة يعبّر عنها بصدر أسمائها، كالجيم(ج) مثلا، وكذلك الاسم (ألف) يعبّر عن صدره صوتيّا عمّا سمي أخيرا الهمزة (ء).

*- إنّ الرّمز الأوّل للأبجديّة العربيّة حسب التّرتيب القديم (أبجد، هوّز،...) هو الألف رسما، ولكنّه الهمزة نطقا، وعندما وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي رموز الفتح والضّم والكسر والتّسكين - هي غير نقاط أبي الأسود الدّؤلي الدّالة على الحركات- استعمل الألف للدّلالة على علامة المدّ، أو الفتحة المشبّعة؛ فأصبحت الألف في هذه الحالة تدلّ على ما يسمى بالهمزة، وعلى الفتحة الطّويلة في الوقت نفسه ما اضطّره لابتكار علامة مميّزة للهمزة في شكل رأس عين صغيرة، وذلك لقرب مخرج الهمزة من مخرج العين، على ما يروى[57].

وللألف أوجه عدّة، حيث تأتي:

*- ضميرا متّصلا في الأفعال للدّلالة على الفاعل، نحو: (اذهبا)، وعلامة إعراب لرفع المثنى أو لنصب الأسماء الخمسة، الولدان يطيعان أباهما.

*- حرفا لا يعرب، وذلك للفصل بين نون النّسوة ونون التّوكيد، نحو: (الطّالبات تكتبنانّ)، وفي الاسم المنوّن المنصوب الموقوف عليه، كما قال الأعرابيّ: " اللّهمّ ارحمني ومحمّدا، ولا ترحم معنا أحدا." ولإشباع حرف الرّوي المفتوح، وتسمّى ألف الإطلاق في النّدبة، نحو استغاثة المرأة في حادثة عموريّة : " وا معتصماه"، وفي النّداء، كقولنا: (يا أمتا).

*- بدلا من نون التّوكيد، كقوله عزّ وجلّ: ﭽﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﭼيوسف: ٣٢.

ملاحظات هامّة:

*- يعرف أصل الألف في الفعل الثّلاثيّ بواسطة إحدى الطّرق:

*- إسناد الفعل الماضيّ إلى ضمائر الرّفع، كالفعل (دعا) مثلا نقول: (دعوت)، فأصل الألف واو، الفعل (رمى) نقول: (رميت)، فأصلها ياء.

*- صياغة المضارع، نحو: الفعل (صحا، يصحو)، و(بكى، يبكي).

*- اشتقاق المصدر، نحو: (سما سّموا)، و(سعى، سّعيا).

*- ويعرف أصل الألف في الأسماء الثّلاثيّة من كتب اللّغة غير أنّه يمكن الاستعانة على صحة كتابتها بالضّوابط التّالية:

*- تثنية الاسم الثّلاثيّ، نحو: (عصا، عصوان)، و(فتى، فتيان)، أو جمعه، نحو: (عصوات) ، و(فتيات).

*- اشتقاق صفة مؤنثة، نحو: (عشا، فهي عشواء).

*- الاستعانة بمفرده، نحو: (القرى، مفردها: القرية).

أ- همزة القطع:

هي الهمزة المبدوء بها، والّتي ينطق بها في الابتداء والوصل، وتكتب على شكل رأس عين كما رمز إليها الخليل مع كرسي لها هو الألف، فإن كانت مفتوحة أو مضمومة توضع فوقه، وإن كانت مكسورة توضع تحته.

- مواضعها:

*- في ماضي الفعل الرّباعيّ، وأمره، ومصدره، نحو قولنا: (أحسن إلى والديك إحسانا ينبغي لمقامهما، كما أحسنا إليك)، وفي الأفعال الثّلاثيّة المجردّة المهموزة، مثل: (أكل، أخذ،...).

*- في صيغتي التّعجب واسم التّفضيل، نحو قولنا: (ما أكرم! وأكرم به!)،

*- في كلّ اسم مبدوء بهمزة مفردا كان أو جمعا، نحو: (أرض، أمة، أفعال،...).

*- في الحروف المبدوءة بهمزة، نحو: (أمّا، ألاّ، أن، إلى، ...).

وهمزة القطع ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: - الهمزة الابتدائيّة:

إذا وقعت همزة القطع في بداية الكلمة تكتب بصورة الألف مهما كانت حركتها، حتّى وإن دخلت عليها (ال) التّعريف أو بعض الحروف؛ نحو: (الإنسان)، (سأرى)، (فأقدم)، (يأخذ)، (لأنّك)، "وقد شذّت كتابة (لئن)، و (لئلا)، و(هؤلاء)، و(حينئذ)، و(آنئذ)؛ إذ اعتبرت همزتها متوسطة فتبعت قاعدتها"[58].

ملاحظات هامّة:

*- إذا وقع بعد همزة القطع المضمومة همزة ساكنة أبدلت الهمزة السّاكنة واوا، مثل: (أوثر، وأوتي)، أصلها (أأْثر، وأأْتي)، وإذا كانت مفتوحة، تبدل الهمزة السّاكنة مدّه، مثل: (آمر، وآمل)، أصلها (أأْمر، أأْمل)، وإذا كانت مكسورة، تبدل الهمزة السّاكنة ياء، نحو: (إيت)، أصلها (إئْتِ).

*- إذا وقعت همزة القطع بعد همزة الاستفهام تبقى على حالها٦٢، وإذا وقعت بعدها همزة وصل، " تسقط همزة الوصل من الكتابة كما تسقط من اللّفظ لضعفها وقوة همزة الاستفهام"[59]؛ نحو قولنا: (- أبنك هذا أم أخوك؟)، (- أسمك حسن أم حسين؟)، (- أستمتعت بالعرض؟)، "وليس في هذا الإسقاط تباين؛ لأنّ همزة الاستفهام مفتوحة، وهمزة الوصل مكسورة، ولا تجري همزة (ال) هذا المجرى، وإن كانت للوصل لأنّها مفتوحة، وهمزة الاستفهام مفتوحة كذلك، فيحدث الالتباس بين الهمزتين، وعندها يختلط الكلام الخبري بالكلام الاستفهامي، والصواب هو أنّ يستغنى عنهما بالمدّة"[60].

النّوع الثّاني: - الهمزة المتوسّطة:

ومن ضوابطها ما يلي:

*- إذا توسطت الهمزة يقارن بين حركتها وحركة ما قبلها، فتكتب بحسب الحركة الأقوى: (الكسرة أوّلا، الضّمة ثانيا، الفتحة ثالثا، وأخيرا علامة السكون)، نحو: (سئم، بئر، سؤال، سئل، مسألة، رأس،...)

*- إذا سبقت الهمزة المتوسطة بياء ساكنة، فتكتب على النّبرة باعتبار الياء قبلها بقوة الكسرة، نحو: (مشيئة، رديئة، هيئة،...)

*- إذا سبقت ألف المدّ ألف الهمزة، ترسم الهمزة منفردة على السّطر، نحو: (تساءل، قراءة،...)، وإذا سبقت الهمزة ألف المدّ، تقلب الهمزة مدّة، نحو: (قرآن، نبآن، ملجآن،...)

*- إذا وقعت الهمزة المتطرّفة المنفردة على السّطر بين حرفي اتّصال تعتبر متوسطة، فتكتب على النّبرة في المثنى، مثل: (شيئان)، وإلاّ فتبقى على السّطر، مثل: (جزءان، ضوءان...).

ملاحظات هامّة:

*- إذا لحقت ألف تنوين النّصب الهمزة المتطرّفة، وكان ما قبلها لا يتّصل بما بعدها خطّا، تبقى منفردة على السّطر، نحو: (جزءا)، أمّا إذا كان ما قبلها متّصلا بما بعدها خطّا، فترسم على ياء، نحو: (عبئا).

*- وإذا لحق بالكلمة المنتهية بهمزة ما يتّصل بها خطّا، فإنّها غالبا تبقى على كرسيّها، نحو: (يقرأون، قرأوا...)، أماّ إذا كانت منفردة فإنّها ترسم على كرسي يناسب حركتها، نحو: (جزاؤُه، جزائِه..).

النّوع الثّالث: الهمزة المتطرّفة:

تكتب الهمزة المتطرّفة على حرف يناسب حركة الحرف الّذي قبلها، مثل: (اللؤلؤ، النبأ، قارىء، شيء، سماء...).

ب- همزة الوصل:

هي همزة ابتدائية تكتب وتقرأ إن وقعت في أوّل الكلام، وتكتب ولا تقرأ إن وقعت في درجه، كأن تكون مسبوقة بحرف أو بكلمة، وتكتب همزة الوصل بالألف الطّويلة، أو بصورة الألف وفوقها صاد صغيرة (آ)؛ وذلك للدّلالة على الوصل، فكأنّ هذا الرّمز(ص) يوحي بدلالة فعل الأمر (صِلْ)، وذلك إذا وقعت في درج الكلام، وتقع همزة الوصل في المواضع التّالية:

*- في (ال) التّعريف، وتصبح همزة الوصل همزة قطع في لفظ الجلالة (الله) إذا سبقت ب(يا) النّدائيّة، أي: (يا ألله).

*- وفي أوّل فعل الأمر من الثّلاثيّ، ك (اكتب، وادرس)، وفي أوّل ماضي الخماسيّ والسّداسيّ، وأمرهما، ومصدرهما، نحو: (انتفع انتفاعا، واستغفر استغفارا).

*- وفي الأسماء الآتية: ابن، وابنة، وامرؤ، وامرأة، واثنان، واثنتان، واثنين، واثنتين، واسم،...

وتحذف همزة الوصل كتابة ونطقا:

*- إذا دخلت اللّام على الأسماء المعرّفة ب(ال).

*- من كلمة (اسم) في البسملة.

*- من كلمة ابن إذا جاءت صفة بين علمين ولم تقع في أوّل السّطر كتابة، نحو: خالد بن الوليد قائد شجاع، أو إذا جاءت بعد حرف النّداء، ويشترط لحذف الألف أن يكون ثاني العلمين والد الأوّل، وألاّ تثنى ولا تجمع.

ج- الألف المتطرّفة:

تكون الألف المتطرّفة في آخر الفعل، ك: (دعا، وسعى،..)، أو في آخر الاسم، ك (فتى، وعصا، وطنطا، وبيوطيقا،..)، "وقد كتبت بخارى (أسماء البلدان) بالياء، وأربعة من

أعلام النّاس بالياء أيضا، وهي: موسى، وعيسى، ومتّى"[61]، أو في آخر الأسماء المبنية، ك: (أنا، ومهما،..) "إلاّ خمس كلمات منها، فقد كتبت بالياء؛ وهي: أنّى، متى، لدى، والألى (بمعنى الّذين)، وأولى (للجمع كأولاء)"[62]، أو في آخر الحروف تكتب ألفا، ك: (لولا، وكلاّ، وهلاّ،..) "إلاّ أربعة أحرف، كتبت بالياء وهي: إلى، وعلى، وبلى، وحتّى"[63].

فإن كانت رابعة فأكثر، تكتب ياء مطلقا، نحو: (دعوى- أعطى- اتقى- استعلى- ...)، "إلاّ إذا لزم من كتابتها ياء اجتماع ياءين، فتكتب ألفا، نحو: (استحيا- دنيا-...)، وقد كتبوا (يحي)، و(ريّى) – علمين- بياءين للتّفرقة بين ما هو علم أو فعل أو صفة، أي: (يحيا، ريّا)"[64]، وإن كانت ثالثة، فإن كانت منقلبة عن الواو تكتب ألفا، ك: غزا، وسما، والقفا، والرّبا، والضحا،...)، وهذا رأي البصريّين، وقد خالفهم الكوفيّون، فهم " يكتبون ما كان من الأسماء مضموم الأوّل أو مكسور بالياء، وإن كانت ألفه أصلها واو، .. وجمهور الكتّاب على رأيهم في ذلك، وهو خلاف القياس"[65].

11- الوصل والفصل:

من الكلمات ما لا يصحّ الابتداء به وجب وصله بما قبله، كالضّمائر المتّصلة، ونوني التّوكيد، وعلامة التّأنيث، وعلامة التّثنية، وعلامة الجمع السّالم، ومنها ما لا يصحّ الوقف عليه وجب وصله بما بعده، كحروف المعاني الموضوعة على حرف واحد، والمركّب المزجيّ، وما ركّب مع المائة من الآحاد، والظّروف المضافة إلى (إذا) المنوّنة، ك: (يومئذ، وحينئذ)، ومنها ما يصحّ الابتداء به والوقف عليه، وهو كلّ الكلمات إلاّ قليلا.

وفي بعض المواضع تمّ وصل "ما حقّه أن يكتب منفصلا كأنّهم اعتبروا الكلمتين كلمة واحدة"[66]، ومنها:

*- وصل (ما) الاسمية بكلمة (سيّ)، فتكتب: (سيّما)، و(نعمْ) إذا كسرت عينها.

*- وصل (ما) الحرفيّة الزّائدة بما قبلها أيّا كان نوعها، نحو: (إمّا، أينما، ممّان..).

*- وصل (ما) المصدرية بكلمة (مثل، و ريث وحين، وكلّ)، نحو: (مثلما، وريثما، حينما، وكلّما،..).

*- وصل من (الموصلية أو الاستفهامية أو الشرطية) ببعض حروف الجرّ(ممّن، عمّن، فيمن، بمن..)

*- وصل (لا) ب(أن) النّاصبة للمضارع، ك: (ألاّ)، وتوصل ب (إن) الشّرطية الجازمة، ويمكن وصل (لا) ب (كي)، ويمكن فصلهما كذلك؛ فالأمران جائزان.

خاتمة:

رغم كلّ التّحسينات الّتي أضيفت إلى المصحف العثمانيّ، "ظلّ المسلمون متحرّجين من إدخال أيّ تعديل على طريقة الهجاءّ، واتّباع قواعد الإملاء الحديث في رسم المصحف"، وأمّا الضّبط "فقد جرى عمل المسلمين على التّرخيص به دفعا للالتباس، ومنعا للتّحريف والخطأ"، غير أنّ الجدل ظلّ قائما بين العلماء قديما - ولا يزال إلى الآن- بالنّسبة لهذه القضية، حيث قال الإمام مالك (رحمه الله) في هذا الشأن: " أمّا الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط، ولا يزاد في المصاحف ما لم يكن فيها، وأمّا المصاحف الصّغار الّتي يتعلّم فيها الصّبيان وألواحهم، فلا أرى بذلك بأسا"، فقد حاول بعض العلماء أن يلتمسوا الحكمة من الاختلافات، أو الفروق الموجودة بين الرّسم العثمانيّ والرّسم الإملائيّ الحديث، وعدم الاطّراد في قواعد الهجاء في الرّسم العثمانيّ، ولكن بقيت حكمة ذلك عند الصّحابة الّذين نسخوا المصحف، فمنها ما علم ومنها ما لم يعلم، وممّا توصّل إليه علماؤنا نجد بعض التّحليلات أو التّعليلات المقبولة.

فاللّغة العربيّة تعدّ من حيث تعلّقها بالتّعليميّة غاية ووسيلة في آن واحد كونها مادّة أدائيّة، إذ لا تقتصر على الأدب العربيّ فحسب بل تستعمل أيضا لتلقين مختلف الموادّ التّعليميّة باعتبارها اللّغة المعتمدة في إعداد المقرّرات، كما أنّها غدت لغة عالميّة نظرا لارتباطها بالقرآن الكريم والشّريعة الإسلاميّة، فمن الواضح أنّ خدمة القرآن كانت الباعث

وراء نشأة علوم العربيّة وتطوّرها؛ كالنّحو والبلاغة...، فالصّلة وثيقة بين القرآن والعربيّة، إذ أنزله الله تعالى وفق سنن العرب في كلامهم غير أنّه تحاشى الكثير من تعابيرهم فهذّب ما كان مستهجنا منها، وللقرآن فضل كبير على العربيّة، فقد حفظها الله تعالى بحفظه لكتابه من التّحريف والضّياع، وأسهم في انتشارها أينما حلّ، كما أغنى مفرداتها وطوّر دلالاتها..، كما أنّ لتطوّر معاني الألفاظ وتغيّرها أسباب متعددة، فإمّا أن تكون دينيّة أو لغويّة أو اجتماعيّة أو تاريخيّة أو بسبب الاقتراض اللّغويّ والاصطلاح العلميّ، فقد أصبحت اللّغة العربيّة لغة اصطلاحيّة حديثة؛ وذلك بالاعتماد على الآليات المناسبة لصياغة المصطلحات، وهي وسائل ضروريّة لإثراء اللّغة وعصرنتها بحيث تمكّنها من مواكبة الحركة الفكريّة والثّقافيّة في العالم.

الهوامش:

[1] - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد، بيروت– لبنان، 1995م، ج2/ ص: 180.

[2] - الزّمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرّحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1399هـ، ج2/ص: 100.

[3] - ابن حزم، الملل والنّحل، ص:93.

[4] - ابن خلدون، المقدّمة، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1984م ، ص:407.

[5] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، المكتبة العصريّة، بيروت-لبنان، 2005م، ص:13.

[6] - الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، (د ت)، ص:44.

[7] - كتاب الصّناعتين: الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكريّ، تحقيق ضبط: مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1981م، ص:23.

[8] - التّواتي بن التّواتي، القراءات القرآنيّة وآثارها في النّحو العربيّ والفقه الإسلاميّ، دار الوعي للنّشر والتّوزيع، الجزائر 2005م، ص: 28-29.

[9] - الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التّراث، القاهرة- مصر، 1276هـ/ 1957م ، 278/1.

[10] - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، ص: 100.

[11] - ابن فارس، الصّحابي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: الطّباع، القاهرة- مصر،1993م، ص:255.

[12] - الشّافعيّ، الرّسالة، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت - لبنان، 1990 م، ص:15.

[13] - جلال الدّين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط 01، بيروت– لبنان، 1998م،

[14] - عبد الصّبور شاهين، عربيّة القرآن، مكتبة الشّباب، مصر 2001م ، ص: 71.

[15] - ينظر: المرجع السابق، ص: 48.

[16] - الباقلاّني، إعجاز القرآن، ص: 45.

[17] - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، 1973م، 236/1.

[18] - صبحي الصّالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط6، بيروت، 1969م، ص: 92.

[19] - نقط الإعجام: هو الذي يميّز الأحرف المتشابهة بعضها من بعض بالباء والتّاء والثّاء. - ونقط الشّكل: هو وضع الحركات القصيرة (ضمة، فتحة، كسرة) مجردة من أيّ علامات إضافيّة.

[20] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، المكتبة العصريّة، بيروت- لبنان، 2005م، ص:31.

(العسب: جمع عسب، وهوجريد النّخل، والكرانيف: جمع كرنافة- بالكسر والضم- وهي أصول السّعف الغلاظ، واللخاف: جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة).

[21] -أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، مؤسّسة الكويت للتّقدّم العلميّ، ط1، الكويت، 1993م، ص: 20 وما بعدها.

[22] - المرجع السابق، ص: 29.

[23] - ينظر: أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 19.

[24] - سهيلة جبوري، الخط العربي، ص:56.

[25] - الأصفهاني، معجم القراءات:48/3.

[26] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 28.

[27] - سهيلة جبوري، الخطّ العربيّ، ص: 57.

[28] - المرجع السّابق، ص: 56.

[29] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 32.

[30] - المرجع السّابق، ص:74.

[31] - الكردي، تاريخ القرآن، مطبعة الحلبي، مصر، 1953م،ص: 158.

[32] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 37.

[33] - المرجع السّابق، ص: 32.

[34] - صبحي الصّالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط6، بيروت، 1969م، ص: 122.

[35] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 34.

[36] - المرجع السّابق، ص: 34.

[37] - الكردي، تاريخ القرآن ص: 108.

[38] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 25.

[39] - المرجع السّابق، ص: 26.

[40] - إميل بديع يعقوب، معجم الإملاء والإعراب، ص: 15.

[41] - القسطلانيّ، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: عامر السّيد عثمان وعبد الصّبور شاهين، ص: 300/1.

[42] - الدّاني، المحكم في نقط المصاحف، تحقيق: عزة حسن، دار الفكر، دمشق، 1407هـ، ص:189.

[43] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 42.

[44] - محمّد السّعران، علم اللّغة، دار النّهضة، بيروت، ص:90 وما بعدها.

[45] - عبد القادر مايو، الوجيز في فقه اللّغة، دمشق، 2004م، ص:43.

[46] - ابن خلدون، المقدّمة، ص: 34.

[47] - مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ط 36، المكتبة العصريّة، بيروت – لبنان، 1999م، ج2/ 153.

[48] -المرجع السّابق، ج135/2.

[49] - عبد الفتّاح شلبي، رسم المصحف العثمانيّ، دار الشّروق، ط2، 1403هـ، ص: 60.

[50] - الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ج2/ 136.

[51] - المرجع السّابق، ج2/ 137.

[52] - المرجع السّابق، ج2/ 138.

[53] - المرجع السّابق نفسه، ج2/ 138.

[54] - إميل يعقوب، معجم الإملاء والإعراب، ص: 10.

[55] - مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ج2/ 139.

[56] - إميل يعقوب، معجم الإملاء والإعراب، ص: 11.

[57] - المرجع السّابق، ص: 11.

[58] - المرجع السّابق نفسه، ص: 24.

[59] - السّابق نفسه، ص: 25 .

[60] - مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ج2/ 143-144.

[61] - مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ج2/ 157.

[62] - المرجع السّابق، ج2/ 156.

[63] - المرجع السّابق نفسه، ج2/ 156.

[64] - المرجع نفسه، ج2/ 155.

[65] - نفسه، ج2/ 155- 156.

[66] -المرجع نفسه، ج2/ 158.